مذكرات رشدي العامل:

حكايات طائر الفرات

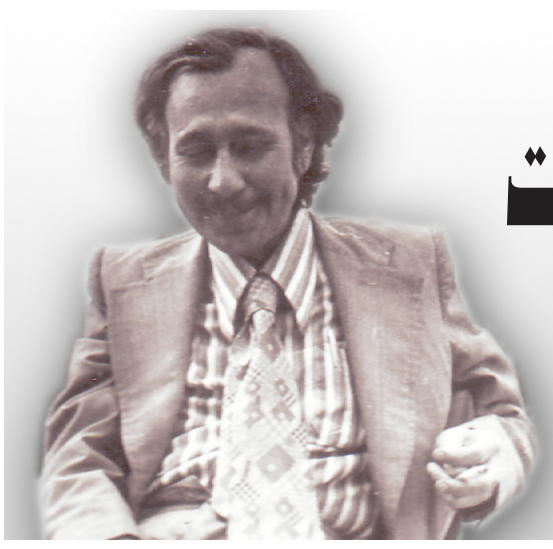

هذه حكاية رشدي العامل تقدمها المدى فصولاً كتبها الشاعر الذي تالق وتألم كثيراً والصحفي الذي اعطى للفكر الانساني وللعراق دون منة، و(المدى) والتي تنفرد بنشر مذكرات رشدي تجدها وثيقة ثقافية تاريخية تكشف عن فصول من حياة شاعر كبير ضاجة بالصدق والبراءة والقدرة على الاكتشاف.

المدى الثقافي

-الحلقة الثانية-

المدينة - القرية
القرية - المنفى

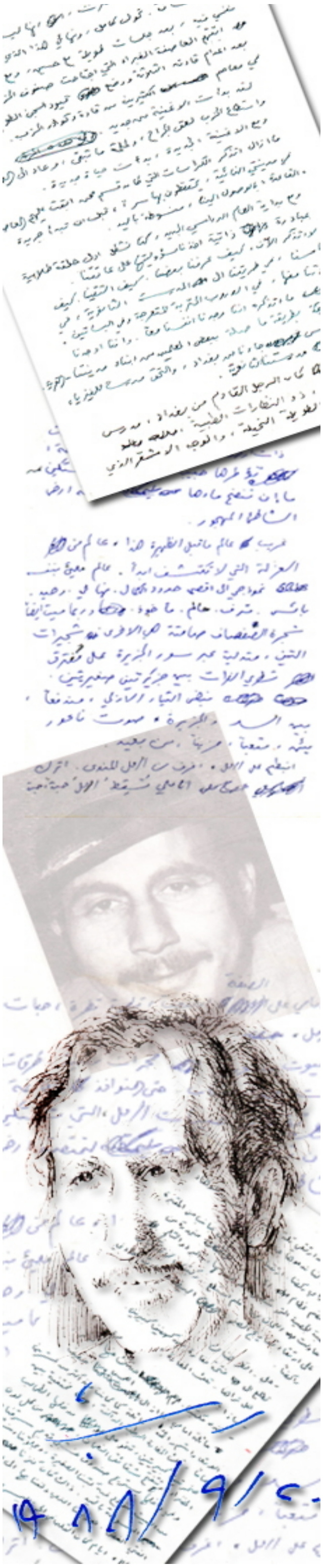

مع بداية العام الدراسي الجديد، كنا نشكل، اول حلقة طلابية بمبادرة ذاتية اخذنا مسؤوليتها على عاتقنا.

لا اتذكر الان كيف عرفنا بعضنا، كيف التقينا، كيف تهامسنا في طريقنا الى المدرسة الثانوية وفي عودتنا منها، في الدروب المتربة المتعرجة وفي البساتين.

ما اتذكره اننا وجدنا انفسنا معاً واننا اوجدنا بطريقة ما صلة ببعض المعلمين من ابناء مدينتنا- القرية وبمدرس جاءنا من بغداد والتحق مدرساً للفيزياء في مدرستنا الثانوية.

يبدو كأن شمساً حارة حرقته، كان يتطلع الينا بحذر غير ان صوته الدافئ ، المرتجف احياناً يشيع حساً بالثقة. اكاد اسمع صوته حتى الان صوت الاستاذ عباس كان يختلس لحظات عابرة للقاء بعضنا، بين فرصة واخرى، او في طريق انصرافنا الى بيوتنا الممتدة على جانب الفرات قبل ان يدلف الى مسكنه الصغير المجصص في الطرف الغربي من مدينة عنة.

كان الاستاذ عباس شأن كل مدرسي ومعلمي وموظفي المدينة الاخرين الغرباء، قد ألف الحياة في تلك المدينة، في تلك القرية الطويلة، الغريبة، العريقة في القدم، الثابتة، الساكنة التي تمتص سكينتها اصخب الاصوات كما تمتص الوانها: ارضها ونخيلها وماؤها وخضرة طحالب سواقيها وضفافها اشد الالوان تفجراً ونبضاً. ان اولئك الغرباء القادمين الى المدينة- القرية، الى القرية- المنفى يتأقلمون بسرعة مذهلة، لانهم لا يستطيعون غير ان يرتدوا زيها الغامض، ويتعايشوا مع طعمها الغريب، ان لها شخصيتها المتميزة غير المدركة، بتركيباتها العائلية المعقدة، وسلالاتها المتعددة، ولهجاتها المستعصية، المضحكة والبسيطة المعقدة والساذجة غير ان شيئاً مميزاً يلاحظه القادمون الغرباء فيها هو ان الالفة السريعة تمنحهم شعوراً بالود والمعايشة مع سكانها البسطاء الطيبين الذين تتجاوز اعمار سلالات بعضهم آلاف السنين، محصورة بين ضفة الفرات وسفوح الوهاد الصخرية والوديان المتعرجة التي تقطع سيول الامطار فيها، آلاف الاميال قادمة من بطون الصحراء العربية لتصب في الفرات الازلي.

اننا صبيان المدارس الابتدائية، وفتيان الدراسة المتوسطة والثانوية فيما بعد، كنا نشهد دون شعور بالمراقبة الواعية، كيف يتحول معلمونا ومدرسونا، الى مواطنين اعتياديين مألوفين بيننا، وكيف يتعامل آباؤنا وذوونا معهم، ببساطة والفة ومحبة.. لقد امتصتهم قريتنا الهائلة فاستجابوا الى معانقة ذلك الرمز التاريخي الموغل في القدم.

مدينة الخبز والسمك والخمر والقهوة

لقد تركوا وراءهم الجزء الاكبر من حيواتهم الماضية وبدأوا يتقاسمون معنا حياتنا اليومية هموم عوائلنا: الخبز اليومي في تنانير البيوت. الخضروات والفواكه من المزارع الصغيرة والبساتين التي لا توفر لاصحابها —الا بالكاد- ما يزيد عن متطلبات الاستهلاك المنزلي واللحوم، والالبان من الماشية التي تربى في البيوت الطينية والجصية.

ومع هذا، فكل شيء متوفر: لحوم الماشية واسماك النهر العظيم الطازجة. اعذاق التمر ومخازن الدبس. الدهون والازباد والالبان، فواكه البساتين بانواعها المختلفة وما تمنحه الضفاف الرملية وبطون الجزر الساحرة، من التين والبطيخ والمشمش الرطب والتفاح المدور الصغير ذي اللونين حتى الاقمشة الملونة الزاهية، مركونة في الحوانيت القديمة، قادمة بالف طريق وطريق، عبر النهر والصحراء، قاطعة الطريق من سوريا الى قريتنا العجيبة، مع روائح الصابون والقهوة والبخور وماء الورد، بل حتى عرق التمر مستقطراً في منازل اليهود باقصى شرقي المدينة.

عاصمة اقصى الطرف الغربي

اتذكر، اننا كنا نسعد، عندما نرى مدينتنا تستضيف قادماً جديداً ستنساه سجلات الحكومة ،امداً طويلاً..

قريتنا، عاصمة اقصى الطرف الغربي من الوطن. وكنا نلاحظ دون شعور بالمراقبة، كيف يستجيب القادمون لهذه الحياة، لانهم لا يملكون بديلاً وكيف تتوسع حلقات لعب الكونكان والدومينو، في المقاهي المتوزعة في المحلات المختلفة.

ان أي قادم جديد، حتى اولئك المدرسون الجدد، والذين يواصلون احلامهم، امداً قصيراً، بالعودة الى بغداد، وهم يجترون عذوبة ذكرياتهم في دار المعلمين العالية، ونواديها الشهير، حتى اولئك، حتى اشدهم احتماءاً بحارته الذاتية، لا يلبث ان يجد نفسه وقد استسلم لتلك الحياة الواهنة الكسلى المراوحة بين المدرسة والبيت والمقهى في النهار امام السبورة على دفق الضوء المشع الباهر، في عذوبة الصباحات الساجية وفي الليل تحت اضواء مصابيح الزيت الساطعة في المقاهي المتواضعة وعلى الكراسي الخشبية او الخيزرانية المتهالكة التعبى.

لقد اقتادت المدينة خطى الاستاذ عباس، كما اقتادت خطى المئات من قبل.

ذات ظهيرة مع الاستاذ عباس

و.. ذات ظهيرة!

كنا ننحدر من المدرسة من تلك البناية الحجرية على قمة جبل يعانق مرأى الفرات وهو يلتوي يساراً، ناحتاً الصخور البيضاء، في قاع الجبل المقابل حيث تلوح بقايا قلعة راوة الاثرية، ذات الاشباح التي طالما ألهبت خيالات طفولتي المبكرة عندما كنت طالباً صغيراً، ادرج في مدرسة راوة الابتدائية.

ولقد فكرت باستمرار:

القلعة الاثرية في راوة. بقية بل البقية الوحيدة من عهد السيطرة العثمانية السوداء على وطني.

والمدرسة الثانوية في عنة، احدى اقدم الثانويات في العراق بناية قديمة نرتقي اليها في زمهرير الشتاء القارس، تتخثر الدماء في اناملنا النابضة على مقودات الدرجات الهوائية نأتي اليها من اقصى مدينة عنه، ويعبر اليها زملاؤنا من الفرات البارد العريض من راوة، ونلتقي كل يوم، كل صباح، تصفع وجوهنا الفتية الريح الباردة الزمهرير، خلال النوافذ مهشمة الزجاج.

ذات ظهيرة كنا ننحدر مخدرين من التعب الصبي، التعب الذي لا يعرف التعب وكان الاستاذ عباس بيننا، نلتف حوله فقد رافقناه بعد آخر دروس ذلك اليوم.

لا اذكر كيف استطاع ان يزرع في اذني وشوشة ما غير اني عندما افترقت عنه مع بقية زملائي شعرت اني داخل حلم بهيج.

في ذلك المساء لم اقرأ شيئاً، شغلني التفكير فقط: رباه.. ايمكن ان يكون هذا؟ يا للسعادة! ان القضية هنا ايضاً حقيقة مؤكدة فالاستاذ عباس منا لقد احسست بهذا. متى؟ لماذا؟ لم اعرف ولم اعرف حتى اللحظة ذلك السر الذي ملأني حضوره انما كنت متأكداً ان هذا المدرس الهادئ، المبتسم الذي يشيع درسه، على مشقته، فضولاً وحرارة داخل غرفة الصف الجصية — الحجرية الباردة ان هذا المدرس يرتبط بالقضية حتما انه يرتبط بها بشكل ما فقد كان لا يترك فرصة تمر دون ان يحاول التأكيد على ان العلم، والعلم وحده وعلم الفيزياء بشكل خاص، هو الذي يحمل مستقبل الانسان عبر كشوفاته المستمرة. كان يربط، بذلك التفاؤل الحاذق الدقيق- على ما تختزن ذاكرتي- بين تطور العلم وطموح البشر ولم يكن صعباً علي ان اتطلع خلال سنوات التفتح الاولى، الى ما تحمله الآمال العظيمة، من بشائر مستقبل جديد للانسان.

كشوفات التنظيم الاول

وهكذا، استعدت في تلك الامسية لاذعة البرد امام موقد النار، وخلال ألسنة اللهيب، ورائحة الدخان، وثرثرة الآخرين، ونحن نسمر في احدى غرف الدار القديمة ما قاله لي رؤوف، من ان احدهم سيتصل بي في المدرسة وان عليَّ ان اكون مطمئناً اليه.

رؤوف، معلمنا القديم الذي شاهد براعم طفولتنا في المدرسة الابتدائية، احد ابناء المدينة —القرية عرفته طفولتنا المبكرة وعرفه صبانا وفتوتنا. وجه ثر الطيبة، مهموم دائماً، ومبتسم دائماً كيف؟ لا ادري.

كانوا يعتبرونه شخصاً خطيراً ينبغي الابتعاد عنه غير ان التحذير لم ينفع اكثر من ازدياد قربنا منه وحتى بعد ان عرفنا هويته، التي لم نكن نعرف ماذا تعنيه، لم نفعل اكثر من زيادة الاستئناس له.

رؤوف ، أنكفأ في تلك الفترة السوداء التي اعقبت اعدام قادة الحزب، واخذ الناس يحاولون عدم الاختلاط به، غير ان العلاقات الأسرية الوطيدة، تلك الروابط الموغلة في القدم في قريتنا العريقة، اذابت كثيراً من جليد الحذر، وعندما بدأت اولى محالاوت التجمع لتشكيل نواة جديدة في قريتنا، كان واضحاً ان رؤوف يقف وراءها، وفيما بعد اخبرني خلال اجتماع عابر، ان احدهم سيتصل بي وكان هذا "الواحد" هو مدرس الفيزياء الغريب القادم من بغداد.

في الأيام الاولى، شعرت ان نسغاً جديداً يمد عروق شجرتنا بالغذاء، ويدفعها الى النمو، النسغ الجديد، ببساطة كان دم مدرس الفيزياء .

لقد راقبنا بفرح تطور حلقاتنا التنظيمية. غير ان الشيء الهام.. الاكثر أهمية من سواه، هو ربط تنظيمنا بالتنظيم المركزي في بغداد، كان الأستاذ عباس دائم الانشغال بهذ القضية.

الرمادي - بغداد!

وقد جاءت هذه الفرصة سريعاً، فقبل العطلة الربيعية، استطعت اقناع أبي بأن أزور أقاربي في بغداد، وقد وافق بعد ممانعات عابرة هكذا، فلم ينقض يوم واحد من العطلة، الا وكنت داخل سيارة اجرة في طريقي الى الرمادي.

حتى الان، ونكهة تلك الرحلة تملأ مذاق سنوات عمري التي قضيتها مع القافلة. في الرمادي، قضيت الليلة في ضيافة آل عريم.. وبت ليلتي، في دار المرحوم عبد الحميد عريم، لقد كان صديقاً حميماً لأبي، كما كان منذر صديق طفولتي، وظل صديق شبابي وكهولتي حتى الآن.

صباح اليوم التالي، اصر منذر على اصطحابي بسيارتهم الى بغداد.

وهكذا انطلقنا على الطريق.

كنت اتحسس الجيب الصغير، حيث ترقد لفة صغيرة من الورق الشفاف سهلة الابتلاع، وفي الجيب الاخر رسالة اعتيادية الى عنوان ما.

لقد ضحكنا، منذر وانا، طويلاً عندما أخبرته بعد سنوات طويلة، وعندما عملنا معاً، هو رئيساً للمؤسسة العامة للصحافة والنشر، وانا، محرراً بسيطاً في المؤسسة، ضحكنا عندما اخبرته، انه لا يعرف مدى الخدمة التي قدمها للحزب الشيوعي، عندما نقل بسيارته اول شعار للجنة الحزب المركزية، بتشكيل تنظيم جديد في مدينة عنة.

في بغداد، سلمت الرسالة الى الأستاذ عبد الله، الموظف في مديرية المستوردة العامة قرأها نظر الي، كانت تزكية شخصية من الأستاذ عباس لمنح الثقة، وعلى درجات السلم، حيث تظاهر بتوديعي، دسست في كفه لفة الورق الصغيرة، اخفاها وطلب الي ان اعود بعد يومين .

مع السلامة .. يارفيق

فيما بعد تم تنظيم لقاء في مقهى الامين، بساحة الامين، الاشارة ان تحمل منديلاً، وتتظاهر بانك تمسح وجهك، وانت واقف امام المدخل، ثم تأخذ طريقك الى اية طاولة فارغة وتنتظر.

في الموعد المحدد، كنت اقف امام مائدة صاحب مقهى الامين متظاهراً بأنني ابحث عن شخص ما، منيدلاً امسح به وجهي بعد لحظات كان يستقر على احد الكراس الفارغة حول طاولتي شخص ما.

- مرحباً

- مرحباً

- حدثني.

شرحت له بايجاز ما استطعنا عمله في قريتي. بدا لي وجهاً لا يميزه شيء، وجه شاب من ملايين الوجوه العراقية المتعبة السمراء، حتى الان لا استطيع تذكر ملامحه بدقة، غير انه يفيض هدوءاً وطمأنينة.

- متى تسافر؟

- هذا يتوقف عليكم.

صمت..

- غداً في مثل هذا الوقت هنا. يلائمك هذا ؟

سأل بود.

- طبعاً. ليس لدي ما افعله في بغداد. الجماعة ينتظرون هناك.

ضحك بمرح:

- مستعجلون .. ها؟

- جداً.

ابتسمت انا الآخر. نهضنا. افترقنا.

في اليوم التالي رافقته من المقهى. قطعنا دروباً ملتوية. سحنا في ازقة الحيدر خانة. وضع بين يدي مظروفاً كبيراً. لا أتذكر كل ما ثرثرناه، غير انه ، وهو يودعني، ضغط كفي بحرارة:

- خذ بالك جيداً، احترس، تحياتنا لكم جميعاً. مع السلامة رفيق.

المرة الاولى تلتقط اذناي الكلمة تصل الى ذهني واضحة. لقد وجدت مسؤوليات مستقبلي بين يدي.

في طريق العودة، على امتداد ذلك الطريق الترابي .. الطريق الحجري، في العربة القديمة المهتزة بين العاصمة، وبين قريتي النائية خلال المنحدرات الصخرية، وعبر الوديان المسننة، والارض البائسة الجرداء، اسلمت نفسي لنفسي:

كنت اطفح، بفرح غامر، متحسساً الغلاف الورقي المنتفخ. فها آنذا، بعد طواف متعب، أجد طريقي، واحداً من الاف الناس الذين يعملون في الخفاء، حاملين مصابيحهم في ظلمات الليل الطويل، الذي يطبق على سماء الوطن، وها انذا ايضاً، أعد نفسي لاحمل مسؤولية ما، في هذه المهمة الطويلة الشاقة.

اول مهمة للمراسل الحزبي الفتي

ورغم فتوتي، واندفاع احلامي التي لا تعرف الحدود، ورغم هوس العواطف وطراوتها وتألقها وخفتها، غير انني شعرت بعمق المهمة وجدية المسؤولية واهميتها وعنائها. انها ليست لعبة هذه المرة، ايها الفتى القروي الحالم المغرور.

بعد يومين، كانت الرزمة تستقر بين يدي مدرس الفيزياء .

فبعد ساعة من وصولي الى قريتي، تعمدت ان امر بالمقهى، وان ادعه يلاحظني، وان اشير اليه انني بانتظاره، كانت لنا طريقتنا في اللقاءات العاجلة، وفي تلك الليلة، وبعد ان سلمته "البضاعة" نظمنا طريقة الافادة منها الى الحد الاقصى. كانت منشورات وأدبيات متنوعة، قرأناها في الحلقات ووصلت الى عيون كثيرة بين طلبتنا وقسم من مدرسينا، لقد بدأنا نعمل الآن بشكل منتظم وراسخ، كان تنظيمنا هو التنظيم السياسي الوحيد الممتد بين عنة وراوة.

لقد اوجدنا نواة لمكتبة حزبية بسيطة، تضم ادبيات الحزب ومنشوراته وكراساته المطبوعة بالرونيو وبعض الكتب الادبية التقدمية، باختصار، لقد وجدنا أنفسنا لاول مرة، نرتبط بقضية عظيمة، يحمل لواءها آلاف الناس يتوزعون في كل مدينة وقرية من أرض الوطن. ولقد غمرتنا سعادة لا مثيل لها، أو نحن نتحدث عن كفاح كل المناضلين في انحاء كوكبنا، سعادة اننا جزء من تلك الملايين التي تحلم، في اضواء المدن الكبرى التي لا نعرف الا اسماءها، وفي القرى النائية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية. ان قريتنا المدينة عنة، وقريتنا الاخرى راوة، اسمان عزيزان، جميلان، بين الاسماء.

الانتقال الى الفتوة والوعي

ان تلك الاونة التي شهدت انفصالي التام عن عالم الطفولة السعيد، ووضعتني ازاء ارتياد عامل جديد، مثير ومدهش، لم تستطع ان تجتث مني الجذور التي تشدني الى الماضي.

ان من المثير، داخل وعيي، وحتى اللحظة، استعادة الجسور التي ظلت تشدني الى ذلك الارث الغامض من الفكر السلفي الذي تلقته سنوات عمري الاولى.

فما أزال، حتى الآن، خصوصاً عندما احتسي شيئاً من الخمر، واكون في صحبة حميمة، وفي جو نفسي طليق، ما ازال استعيد بحنان غامر، حد البكاء، وقع خطاي الفتية وانا اتردد على الجسر اللامرئي، بين طفولة بعيدة سعيدة، قلقة، راضية، ساخطة، هادئة ومتوترة، وبين خطاي الشابة التي تجاهد ان تكون متثبتة ، واعية، قوية.

اذكر ان بيتنا القديم في تلك القرية- المدينة، كان يضم ثلاثة اقسام، الاول هو "ديوان" جدي القديم، ذو السقف الداخن، والباب الخشبي الثقيل العتيق، والثاني مأوانا، الذي يتكون من ثلاث غرف، والثالث غرفة جديدة صغيرة، امامها طارمة مسقفة بالجص، كنا نراها- الغرفة والطارمة، صالة هائلة السعة وساحة لا حد لها، وهما مهيأتان للضيوف، بعد ان تحول الديوان القديم الى مخزن لا يحمل الا ذكريات بعيدة عن عيوننا، ولا شيء يصله بالحاضر الا الطريق الضيقة التي تؤدي الى مقبرة الأسرة على سفح واد ابيض الصخور تنبت فيه الزهور والاعشاب، بعد امطار الشتاء، في كل ربيع.